" ضعف النفوذ العثماني في منطقة البحر الأحمر وجنوب الجزيرة العربية "
(١٨٣٩ - ١٩٠٥م)

د / حسين حسان محمد حسين
مدرس التاريخ الحديث والمعاصر
بقسم التاريخ بكلية اللغة العربية بأسيوط

مقدمـــــة

إن الحمـــد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله خاتم النـــبين وعلـــى آله وصحبه أجمعين ومن سار على نهجه واهتدى بهديه إلى يوم الدين ...

وبعـــــد :-

مع بداية القرن الثامن عشر أخذت الدول الأوربية تفكر في الطريقة التي تقتسم بها ممـــتلكات الدولة العثمانية ، وفي إحياء الطريق القديم للتجارة ـــ طريق مصر ـــ والمشاهد لخـــريطة العـــالم يرى مصر ومنطقة البحر الأحمر ذات موقع استراتيجي ، إذ تقع في ملتقى القـــارات الـــثلاث : أوربا ، وآسيا ، وأفريقيا ، وأن هذه المنطقة بموقعها الممتاز هذا جعلها أقـــرب وأيسر طريق بين الشرق والغرب ، فقام التنافس بين بريطانيا وفرنسا اللتين اهتمتا بأحوال هذه المنطقة ومستقبلها نتيجة لاهتمامهم بفتح الطريق القديم ، ففرنسا كانت ترى أن فتح هذا الطريق سيجلب لها تجارة الشرق ، ويلحق بتجارة بريطانيا عدويها ضرراً كبيراً .

وبـــدأ التـــنافس يشتد بين بريطانيا وفرنسا على الاستئثار بالنفوذ في منطقة البحر الأحـــمر ومصر، فتطلعت بريطانيا لاحتلال عدن ، عندما تطلع نابلين إلى الهند ، وقام بحملته على مصر عام ١٧٩٨م، لقطع الطريق أمام بريطانيا إلى الهند .

والواقـــع أن المخطط الفرنسي قد نبّه بريطانيا إلى أهمية البحر الأحمر بالنسبة لها ، ولـــذلك فإن حكومة بومباي البريطانية قامت بنشاط واسع النطاق مستعينة بفوالها الهندية للسيطرة على المراكز الاستراتيجية في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ، وللوقوف في وجه أي محاولـــة فرنســـية للوصول إلى الهند ، فتمكنت من احتلال جزيرة بريم عام ١٧٩٩م ، ثم

عقـــدت معاهـــدة صــــداقة وتجارة مع سلطان لحج وعدن في عام ١٨٠٢م٠ فكانت بداية لسلسلة من المعاهدات المماثلة مع أهالي المنطقة لضمان المصالح البريطانية في الطريق البحري إلى الشرق عبر البحر الأحمر ، وأخذت بريطانيا تضاعف جهودها للسيطرة على هذه المنطقة حتى تمكنت من احتلال عدن عام ١٨٣٩م٠

احـــتلت بريطانيا مصر في عام ١٨٨٢م، بعد القضاء على الثورة الإعرابية ، وقد ترتب على ذلك أن فقدت الدولة العثمانية ولاية كبرى من ولاياتها ، فضلا عن الامتيازات الـــتي تحصـــل عليها من مصر ، كما فقدت قناة السويس التي كانت تربط عاصمة الدولة بمناطق البحر الأحمر ، والحجاز ، وجنوب الجزيرة العربية ، وتسهل عليها وصول الحملات التأديبية إلى المناطق الثائرة ضدها ، مما ترتب عليه ضعف نفوذ الدولة العثمانية في هذه المناطق

وعلى الرغم من خضوع أجزاء كثيرة من اليمن لنفوذ الدولة ، فإن الحكم العثمانى لم يســـتقر بسبب التكوين الاجتماعى القبلى في المناطق الجبلية ، علاوة على انتشار المذهب الزيدى ، إلى جانب فساد الإدارة العثمانية ، كل هذا أدى إلى استمرار الثورة دون انقطاع وقيام الدولة العثمانية بإرسال الحملات العسكرية من أجل القضاء على هذه الثورات ٠

ولعل هذا البحث يكشف عن بعض الجوانب التي أدت إلى ضعف النفوذ العثمانى في هذه المناطق ٠

" وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب ، والحمد لله رب العالمين " ٠

المبحث الأول

احتلال بريطانيا لعدن ١٨٣٩ وأثره

على الوجود العثماني في اليمن

تطلعــت بريطانيا لاحتلال عدن ، عندما تطلع نابليون إلى الهند ، وقام بحملته على مصر عام ١٧٩٨م ، وذلك لقطع الطريق البرى إليها ، وركز البريطانيون اهتمامهم بمدخل البحــر الأحمر ، واحتلوا جزيرة بريم عام ١٧٩٩م، كما نزلت بعض القوات البريطانية في عــدن في ضيافة صاحبها سلطان لحج ، وقامت بعد ذلك علاقات مودة ، فعقدت معاهدة تجارية بيــن الطرفين في سبتمبر عــام ١٨٠٢م. (١)

وأثناء احتلال بريطانيا لجزيرة بريم حصلوا من اليمن على إذن بإنشاء مستشفي في مخا لإسعاف بحارتهم ، واقتنعت حكومة الهند بطلب إمام اليمن بتعيين مندوب بريطاني في سنة ١٨٠١م. وعقب ذلك جرت محاولات لعقد معاهدة تجارية مع السلطة الحاكمة في اليمن .

وفي مطلع القرن التاسع عشر تمكنت الدولة السعودية الأولى من غزو اليمن ، ولم تــرحل القوات السعودية عنها إلا في عام ١٨٨١م. عندما تمكن إبراهيم باشا من القضاء على الدولة السعودية الأولى ، فأعديت الإمامة الزيدية ، علاوة على وجود بعض القوات من الجيش المصرى متمركزة في الموانى اليمنية الرئيسية في الحديدة ومخا (٢) وتخوف الإنجليز من امتداد النفوذ المصرى ، وتكوين دولة تصبح خطراً على مواصلاتهم في البحار الجنوبية فتهدد مصالحهم وتعوق نفوذهم (٣) .

وقد عبر عن ذلك وزير خارجية بريطانيا " بالمريستون " بقوله : " إن سيطرة تركيا على طريق الهند لا تفصله سيطرة حاكم عربى نشط مهما كان " (٤) فكانت التجارة والخطط الحربية تستدعيان أن تكون الطرق الرئيسية محروسة حراسة تكفل حمايتها ، وأصبحت حرية البحار المحيطة بشبه الجزيرة العربية من الأسس التي تقوم عليها السياسة البريطانية (٥) .

وانتهــزت بــريطانيا فرصة ضعف الدولة العثمانية وانشغالها في الحرب مع الجيش المصــرى بسبب نزاعها مع محمد على باشا ، وحاجتها إلى المساعدة ضده ، في حين كانت بريطانيا تريد اتخاذ عدن مركزاً للفحم والتجارة ، بينما كانت الدولة العثمانية تعتبره جزءاً من أراضيها . ولا تعترف بما كان يوجد في اليمن من إمارات وإمامات (٦) .

وقـــد حاولـــت حكومة الهند شراء عدن من السلطان محسن سلطان لحج ، وعلى الرغم من هذا التهديد من قبل بريطانيا رفض سلطان لحج بيع عدن ، واتخذت بريطانيا من هـــذا الـــرفض ذريعة لاستغلال حادثة غرق السفينة الهندية " ديريا دولار " لاتهام السلطان محسن بأنه المحرض على إغراق السفينة [٧] .

ومنذ الثامن والعشرين من نوفمبر ١٨٣٨م، كانت التحركات التمهيدية من جانب بريطانيا لاحتلال عدن قد بدأت ، وأصدرت حكومة بومباى تعليمات بإرسال قوة لاحتلال عدن بأقصى سرعة .

وتـــبين لبريطانيا في نهاية عام ١٨٣٨م ، انه لا جدوى من محاولة استمالة سلطان عـــدن إلا باســـتخدام القوة ، فدفعت بقواتها في السادس عشر من يناير ١٨٣٩م ، للقيام بتنفـــيذ عملية الاستيلاء على عدن ، ثم أرسل قائد الحملة الكابتن "هينس " إنذاراً نهائياً إلى السلطان محسن فضل وجميع رؤساء قبيلة العبدلى .

وتم إعـــداد كـــل شئ فالقوارب تحت حماية السفن الحربية ، كما أخذت السفن الحـــربية أماكـــنها ، فكانت نيران هذه السفن شديدة الوطأة حتى دمرت القلعة الرئيسية ، وقضت على وحدة مدفعية العرب ، مما أدى إلى تقدم القوات البريطانية التي لم تواجه سوى مقاومة ضعيفة من العرب وانسحب السلطان وبعض أتباعه من المدينة ، وقبيل الظهر أرتفع العلم لبريطانى فوق قصر السلطان ، واستولت القوارب على منطقة صيرة [٨] .

وكان احتلال بريطانيا لعدن ضمن خطتها العامة في المنطقة فيما يسمى بخطة الهند ، وذلك باحتلالها للمناطق الاستراتيجية والتحكم في مداخل البحار ، وكان هدف بريطانيا من احـــتلال عـــدن ليكون لها السيادة على باب المندب [٩] ، كما أرادوا منها أن تكون قاعدة لتموين السفن بالفحم خاصة عندما تحولت السفن البريطانية إلى استخدام البخار في تشغيلها ، واسترضـــت السلطات البريطانية سلطان لحج بعد ذلك بإعطائه منحه مالية تدفع إليه كل عام ، وعقدت معه صلحاً اعترف لها فيها بامتلاكها عدن ، وعلى الرغم من ذلك تعرضت بريطانيا لكثير من هجمات العرب ، وتوترت العلاقات بينهم وبين سلطان لحج ، ولم تستقر الأوضاع إلا في عام ١٨٥٧م [١٠] .

وعندما احتلت بريطانيا عدن ، لم تستطع الدولة العثمانية اتخاذ إجراء ضد احتلال جـــزء من ممتلكات الدولة العثمانية ، ولعل ذلك يعود إلى خروج والى مصر محمد على باشا

علـى الدولة العثمانية وهو الذي كانت الدولة تستعين به في مثل هذه الأمور ، علاوة على ذلك عدم وجود طريق رئيسى يربط العاصمة الأستانة بهذه المناطق .

ولم يكـن احـتلال بريطانيا لعدن هو غايتها من المنطقة ، وإنما كان هذا الاحتلال بمـثابة نقطة للتوسع وبداية للانطلاق لتأكيد النفوذ البريطاني في جنوب اليمن ، وفي البحر الأحمر ، وعلى الساحل الشرقى لأفريقيا ، ومن عدن تسلل النفوذ البريطاني أولاً إلى السلطنة العبدلية التي كانت محتفظة باستقلالها الذاتى متخذاً من الصداقة وحسن الجوار وسيلة للتسلل ، وكان على الحكومة البريطانية أن تعامل السلطنة العبدلية معاملة خاصة لسببين ، أولهما : أن عدن كانت جزءاً اقتطعته بريطانيا من السلطنة العبدلية ومن ثم وجب تهدئتها ، وثانيهما : أن السـلطنة العبدلية تفصل بين عدن واليمن التي كانت تحت السيادة العثمانية ، ومن أجل ذلك وجب على بريطانيا المحافظة على الوضع في السلطنة العبدلية لتكون حاجزاً بين اليمن ، وعـدن (١١) .

ولما كانت بريطانيا قد عقدت مع السلطان العبدلى معاهدة حماية في الثانى من فبراير ١٨٣٩م ، لحماية المناطق المجاورة لعدن مباشرة فإنها تعهدت في شهر يونيو ١٨٣٩م، بدفع الـرواتب والمعاشـات الـتي كان يدفعها السلطان العبدلى لقبائل يافع والفضلى والحوشبى والأمـيرى ، وكـذلك حددت بريطانيا قيمة الإعانة المالية للسلطان ، وجعل التعهد بينهما هجومـياً ودفاعـياً ، كذلك حددت الأراضى التي تكون تحت النفوذ البريطاني ، وعينت صلاحية حكم كل منهما باتفاقية (١٢) .

وقد استعان " هينس " باليهود واستخدامهم كجواسيس ، وكانت المعلومات التي يحصـلون علـيها تكـتب إلى أبناء ملتهم في عدن باللغة العبرية حتى لا يتمكن العرب من تفسيرها ومعرفتها لو عثروا عليها (١٣) .

ولما أراد الإمام الزيدى مقابلة الكابتن " هينس " أمرت الحكومة البريطانية في الهند " هيـنس " أن يستقبل مبعوث الإمام عام ١٨٤٠م ، بمقابلة لائقة ، وفي الوقت نفسه أمرته أن يكون على حذر حتى لا يورط الحكومة البريطانية بارتباطات تتصل بمطالب الإمام في المخا ، وأما بشأن الإشارة إلى الأعمال العدائية التي يقوم بها الشريف بن على بن حيدر ، حاكم المخلاف السليمانى فانه " ربما كانت من الأعمال السياسية للمستقبل البعيد لتشجيع ودعم مطالـب الإمـام " ، وأسفرت محاولات " هينس " مع إمام صنعاء عن جعل الباب مفتوحاً لبعض المسائل السياسـية (١٤) .

واعــتقد " هينس " أنه من المضر بالمصالح البريطانية أن يصبح الإمام الزيدى قريباً من عدن ، ودافع عن وجهة نظره بضرورة القيام برسم خط للحدود لمنع تقدم الزيديين نحو الجنوب في اتجاه قعطبة .

وفي عام ١٨٥٤م ، بدأت سلطات بومباى الحربية تحس بحالة النقص وعدم الكفاءة في الميناء وفي الدفاع عن فوهة البركان " عدن " وتم اكتشاف احتمالات الضرر التي يمكن أن تسببها السفن المعادية لبريطانيا [١٥] .

وفي الــرابع عشــر من يوليو ١٨٥٤م ، تنازل السلطان سعيد بن سلطان حاكم مسقط للإنجليز عن جزر " كورياموريا" وتضم معها خمس جزر صغيرة في المحيط .

وقــد غضبت فرنسا من هذا التنازل خاصة أن سلطان مسقط السلطان سعيد بن سلطان كان يتظاهر بأنه حليف لفرنسا ، فأمرت فرنسا أسطولها بالقيام بمظاهرة والتجول في تلــك الــبحار ، وقابلت بريطانيا هذه الحركة من الأسطول الفرنسي باحتلال جزيرة بريم بصــورة نهائــية عام ١٨٥٨م [١٦] ، واحتلت جزيرة قمر في البحر الأحمر [١٧] ، والجدير بالذكــر أن جــزر " كوريا موريا " كانت تتبع في إدارتها للمقيم البريطاني في الخليج وذلك لبعدها عن عدن [١٨] .

كما أن التنافس في هذه المدة كان قائماً بين بريطانيا وفرنسا من أجل السيطرة على البحــر الأحمر وباب المندب ، فبعد أن استقرت بريطانيا في جزيرة بريم أراد المسيو " تير " الفرنسى مقابلة هذه الحركة فأمر بإنزال بعض الجنود الفرنسيين في جزيرة رأس الشيخ سعيد الواقعة أمام جزيرة بريم ، وقد استند في عمله الذي قام به إلى معاهدة عقدت في القرن الثامن عشر بين " دولار موررونيه " وزعماء قبائل الخميس حيث تخلى هؤلاء عن هذا المكان لفرنسا ، وفي عام ١٨٦٢م ، أهتم المسيو " توفيل " بصورة خاصة بتنفيذ خطة احتلال رأس الشيخ ســعيد والاســتقرار فــيها ، وكذلك حاول الاستيلاء على أوبوك ــ منطقة تقع في الجهة الشــرقية مــن القــارة الأفــريقية على ساحل خليج تاجورة بالقرب من جيبوتى ــ فقام بمفاوضــات مع زعماء دنقلة انتهت إلى نتيجة مبدئية لصالح فرنسا في العشرين من مــارس ١٨٦٢م [١٩] ، وعلى الرغم من هذا فإن فرنسا تملكت أوبوك بموجب معاهدة باريس عام ١٨٦٤م. [٢٠] .

وفي عـــام ١٨٦٨م ، باع " على شاباط " أحد زعماء قبيلة درين جميع حقوقه في الشـــيخ سعيد لــ " بازين رابود " أحد كبار تجار " مارسيليا " وعلى الرغم من احتجاج الدولة العثمانية على العمل ، استطاع التاجر الفرنسى وضع يده على المكان الذي اشتراه ، وأصـــبح هذا المكان في عام ١٨٧٠م ، مستودع فحم للسفن الفرنسية ، وبعد مدة أراد " بازين رابود " بيع حقوقه في الشيخ سعيد ، فعرض على الحكومة الفرنسية شراء حقوقه فيها ولكـــن الحكـــومة الفرنسية رفضت هذا العرض ، واغتنمت الدولة العثمانية هذه الفرصة فاشـــترت الشـــيخ سعيد ، لكن فرنسا بعد ذلك بذلت جهودها لبسط نفوذها على أبوك لتعويض خسارتها في الشيخ سعيد ، كما استولت على غوبا وتاجورا في أفريقيا بقيادة المسيو " لاغارو " في سنتى ١٨٨٤ ، ١٨٨٥ م (٢١) .

وبـــذلك ظلـــت الســـلطتان الـــبريطانية والفرنسية تسيطران عملياً على حركة المواصلات عبر البحر الأحمر خاصة بريطانيا التي اتجهت إلى تأمين عدن ضد الغزوات القبلية القادمة من الداخل مما دفعها إلى توسيع نفوذها (٢٢) .

كل ذلك حدث في وقت كانت فيه الدولة العثمانية عاجزة عن اتخاذ أى إجراءات حاسمة ضد بريطانيا ، لذلك وقع عبء الدفاع على العرب ، ففي الحادى والعشرين من مايو ١٨٤١م. قـــام العـــرب برئاسة سلطان لحج بالهجوم على ميناء عدن بهدف استعادتها من بريطانيا ، لكنهم هزموا وأصيبوا بخسائر فادحة .

وفي الخـــامس مـــن يوليو ١٨٤١م ، قام السلطان العبدلى بالتعاون مع السلطان الفضـــلى بمحاولة ثالثة لاستعادة عدن ولكن محاولتهم فشلت ، وأجبرتهم المدفعية البريطانية على الانسحاب بعد أن فقدوا نحو ثلاثمائة رجل منهم ، فتجمع العرب في بير أحمد وهو مكان يمكـــنهم منه الاتصال بين عدن والمناطق الداخلية ، وبنوا قلعة نوبة الشيخ مهدى ، وبدأوا سلســـلة المـــناورات الـــتي احدثت أضراراً كبيرة للتجار ولحاملى المؤن ، ونتيجة للأضرار الـــبريطانية ، تقدمت قوة بريطانية في الحادى عشر من أكتوبر ١٨٤١م ، تمكنت من تدمير نـــوبة الشـــيخ مهدى ، كما دمرت قلعة الشيخ عثمان ، ثم قام الأسطول البريطاني في الهند بضرب ساحل الفضلى ، مما أدى إلى فتور همة العرب (٢٣) .

ويذكـــر الشـــيخ الواسعى : " أنه في شهر رجب ١٢٦٢هـــ ــــ ١٨٤٦م خرج شـــريف من أشراف مكة اسمه السيد إسماعيل وتوجه إلى اليمن وأخذ يدعو الناس إلى الجهاد

وبإخراج الفرنجة من عدن ، فأجابه جماعة من الناس ، ثم وصل إلى قرب عدن بنحو فرسخ ، ولم يزل محاصراً لعدن حتى سمم هناك وتوفي ، وتفرق من كان بمعيته من المجاهدين (٢٤) .

وفي رواية أخرى قصّها ــ ذكرها ــ أحد شهود العيان ونشرها العبدلى فحواها أن ذلــك الشريف جاء معه جيش من عسير وانضم إليه كثيرون من أهالى لحج وهجموا على الإنجليــز علــى الرغم من تفشى الطاعون في المقاتلين أو المقاومين ، وهجموا على الإنجليز فقابلوهم بإطلاق المدافع وانهزموا وتفرقوا ، وأن الشريف ومن بقى من أصحابه توجهوا إلى " أبين " (٢٥) .

ويتضح من الروايتين أن هذه الدعوة لإخراج البريطانيين وتحرير عدن من الأجانب غــير المسلمين أتت من الحجاز ، وهذا تعبير عن تضامن الحجازيين مع إخوالهم المسلمين في عــدن والجــنوب العربى ضد بريطانيا من أجل إخراجها من عدن وهذا ليس بغريب على الحجــازيين لقد تضامنوا من قبل مع إخوالهم المصريين أثناء الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨م.

اتــبعت بــريطانيا سياسة المرونة في جنوب اليمن ، واتخذت هذه السياسة مظاهر مخــتلفة أولهـــا المعاهدات الولائية ، والرواتب الشهرية أو السنوية حسب مكانة كل أمير ، ومدافــع تطلــق للتــرحيب بمــن يأتى إلى عدن من السلاطين أو يسافر منها ، ثم الألقاب والنياشــين إضـــافة إلى تخصيص الهدايا الموسمية للسلاطين ، والتدخل في السياسة المحلية عند انتخاب أو تعيين أحد الحكام ، والتحزب لبيت طامع فى الملك على بيت مالك أو غير ذلك من أجل المحافظة على استقلال كل سلطان أو أمير تحقيقاً لمصالحهم ولمصلحة بريطانيا ، وقد عقدت بريطانيا هذه المعاهدات الولائية مع غالبية السلاطين والأمراء والشيوخ بعد احتلالها لعدن مباشرة (٢٦) .

كمـــا تـــدخل الـــبريطانيون في شئون أصحاب المشاجرات ليصلحوا بين صديقين متخاصـــمين مـــن أصدقائهم فيعطيهم التدخل مسؤولية الاستمرار ، فيستمرون متحكمين ومسيطرين (٢٧) .

كمـــا وضح للبريطانيين أنهم يحتاجون قوة كافية من أجل المحافظة على عدن تحت أيـــديهم ، وقـــد يعجزون عن تأمين ذلك إذا لم يكن لعدن منطقة تشبه الدرع يصونها من هجمـــات العـــرب الـــذين يحيطون بها من كل جهات الشرق والغرب والشمال ويحاربون بشراسة ويعتصمون بالجبال ، فاتخذوا لذلك سياسة لين تكتنفها الشدة ، وبدأت المفاوضات

وبيع للبريطانيين الأراضى التي لم يستطيعوا أخذها بالسياسة ، فتم للبريطانيين الذي يحتاجون إليه ، ثم أقام البريطانيون في المناطق التي استولوا عليها الاستحكامات العسكرية ونقلوا إليها الجنود من الهند (٢٨) .

وعلـــى هذا النحو أخضعت بريطانيا الأمراء المحليين لسلطتها ، بعد أن ضمنت لهم المحافظــة على الاستقلال الذاتى لهم ضمن حقوق السيادة لسلطات الحماية البريطانية ، وقد تــرك البريطانيون لحكومة الهند البريطانية شأن التصرف في تلك القوى حيث كانت الرقابة غير المباشرة والغامضة تتم عن طريق سلطات عدن وهذه السلطات لم تعمل على السيطرة على النزعات القبلية ، بل ذهبت إلى إعطاء زعماء القبائل صفة الإمارة والسلطنة والمشيخة في ظل السيطرة البريطانية (٢٩).

كمـــا حرصت السلطات البريطانية على التركيب الاجتماعى والسياسى للتنظيم القبلى الموروث عن تفكك الممالك الكبرى وذلك بحجة احترام النزاعات الاستقلالية المحلية ، وهـــذا التركيب يحتفظ بأهميته دائماً في منظور الاستعمار طالما أنه يشكل حاجزاً في طريق وحـــدة الجـــنوب العـــربى ، وأصبحت بريطانيا مرتبطة بمعاهدة ثنائية مع كل من الكيانات السياســـية المعتـــرف بها رسميا ، واللائحة الرسمية في عدن تشير إلى أن عددها ثمانية عشر ، ولكنها في الواقع أكثر عدداً مما ذكر (٣٠).

واتخـــذ البـــريطانيون مـــن جهل وفقر السلاطين فرصة للسيطرة عليهم وتشتيت كلمـــتهم فعقـــدوا تلـــك الاتفاقـــيات بعد أن اتخذوا من عدن قاعدة للتوسع في جنوب اليمـــــــن (٣١) .

ومحمـــية عـــدن تمثل مجموعة من الأراضى المتداخلة متباينة المساحة متشابهة النظم تقريبا ، وعلى الرغم من الاحتلال البريطاني لعدن فإنه لم يمنع استمرار الانقسامات التي كان من نتائجها الصراع الداخلى المستمر (٣٢) ، الذي استغله البريطانيون لصالحهم ، ولم تشهد عدن أى تحسن في أوضاعها سواء كان ذلك على المستوى الإدارى أو الاقتصادى أو الثقافي وأضحت عدن تابعة في إدارتها إلى حكومة الهند البريطانية .

وقـــد أدى افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية عام ١٨٦٩م ، إلى زيادة اهتمام الدولـــة العثمانـــية بالبحر الأحمر الذي أصبح أهم طريق للمواصلات البحرية الدولية بين الشرق والغرب وسواحل الجزيرة العربية المطلة على هذا البحر خاصة الساحل اليمنى الذي أصـــبحت بـــريطانيا تسيطر عليه من ناحية الجنوب بعد احتلالها لعدن عام ١٨٣٩م ، وما

جاورها من مناطق أخرى ، كما تضاعفت أهميتها وموقعها بتحويل التجارة العالمية إلى طريق البحر الأحمر عقب افتتاح قناة السويس ، وعلى الرغم من عدم استقرار الأوضاع في اليمن إلا أنه منذ وصول الحملة العثمانية عام ١٨٧٢م ، استطاعت أن تعيد تثبيت الحكم العثمانى في هـذه المناطق وعاد إلى اليمن الهدوء والسكينة ، وأصبحت الدولة العثمانية على اطلاع دائـم بأحوال اليمن الداخلية ، كما استطاعت تعيين الولاة حسب الحالة التي كانت عليها البلاد[٣٣] لذلك أصبح النفوذ البريطاني مهدداً تهديداً خطيراً وظهر لبريطانيا أهمية الانتقال من دور الـولاء والعطاء المتمثلين في المعاهدات التي عقدتها بريطانيا مع شيوخ المناطق ، إلى دور جديـد يؤمن النفوذ البريطاني ويدعم بقاءه ، ولم يكن هذا الدور الجديد سوى الحماية التي تمت مع مشايخ القبائل بموجب معاهدات عقدت بينهم وبين الحكومة البريطانية .

كما أن السياسة التي اتبعتها بريطانيا لمواجهة عودة النفوذ العثمانى في المنطقة المحيطة بعـدن ، والذي هدد الوجود البريطاني هناك ، قد ظهرت من خلال ما صرح به " الماجور هنتر " مساعد المقيم السامى البريطاني ، في الثامن والعشرين من سبتمبر ١٨٧٥م ، إذ قال : " إن الـتفاهم الحالى مع الباب العالي بخصوص القبائل المجاورة لعدن كان على أساس احترام اسـتقلالها لأنهـا متحالفة وتتقاضى إعانات مالية من جلالة الملكة ، وعلاقتنا مع القبائل لا تتضمن استقلالها بطبيعة المعاهدات المبرمة معها فإذا ما حاول الباب العالي أن يغرى أحداً من الـذين يتقاضـون رواتب شهرية منا بتحويل اتجاهه عنا فليس لدينا أسانيد دبلوماسية قوية تستند عليها حقوقنا وتكفلها معاهدات يمكننا أن نعتمد عليها ، وحلفاؤنا قد يتخلون عنا ما دمـنا علـى غير اتصال بالمناطق الداخلية ، وهم يملكون القوة التي تمكنهم من قبول سلطة الـباب العالي ، وإذا ما عقدت معاهدات مع قبائل العبدلى والفضلى والعقربى يتم بمقتضاها وضع تلك القبائل تحت الحماية البريطانية ، فإنه من الصعب على العثمانيين التدخل في شئون هؤلاء المشايخ " .

كما رأى " الماجور هنتر " أيضاً عقد اتفاقات أخرى مع قبائل الحوشبى ، والعلوى ويافع السفلى ، تتعهد هذه القبائل بمقتضى هذه الاتفاقات بعدم التنازل أو السماح باحتلال أراضـيها أو قبول أى سلطة أخرى ما عدا بريطانيا ، واقترح " الماجور هنتر " أيضاً تفويض المـندوب السامى البريطاني في عدن لاتخاذ أفضل سياسة تجاه قبيلة العقربى والقبائل الأخرى الواقعة شرقى الطريق التجارى الممتد من عدن إلى المناطق الداخلية ، وذكر أنه بتنفيذ تلك المقترحات في عدن يمكن الوقوف في وجه التقدم العثمانى في الاتجاه الشرقى .

لم توافق حكومة الهند البريطانية على توصيات " الماجور هنتر " ومقترحاته فحسب بـــل وذهبت إلى أبعد من ذلك ، إذ أوصت بمد رقعة الحماية لتضم قبائل العوالق السفلى ، ودثنـــية ، والمهـــرة ، والقعيطى ، كما أرادت أن تمتد حماية البريطانيين إلى أجزاء من ساحل حضر موت في اتجاه الشمال الشرقى بين أراضى عدن ومسقط حتى لو تطلب ذلك منها بذل الأموال لترغيب شيوخ القبائل والمناطق للدخول تحت الحماية البريطانية لتتجنب أى تدخل أجنبى آخر .

ولإنهاء الخلاف مع الدولة العثمانية أرادت بريطانيا الاتفاق معها على تحديد الحدود بين الأراضى الخاضعة للحماية البريطانية والأراضى التابعة للحكم العثماني حتى لا تنشب بين الجانبين مشكلات جديدة تتعلق بمناطق نفوذ كل منهمـــا (٣٤) ، لكن الدولة العثمانية لم تعط ذلك اهتماما لأنها تعتبر المناطق المجاورة لعدن هي في الأساس تابعة لها ، والاحتلال البريطاني جاء بعد ذلك ، فاقترح اللورد دافرين **Dufferun** في أغسطس ١٨٨٦م . : " أنه إذ لم توافـــق الدولة العثمانية على تحديد الحدود فإنه يمكن تحديدها دون موافقتها وإجبارها على الالتزام بذلك "

وعلـــى الرغم من ذلك لم يستمر النزاع طويلا بين بريطانيا والدولة العثمانية فيما يـــتعلق بمشـــكلة الحـــدود بينهما ، ولم يكن ذلك بسبب تحقيق انتصار عسكرى أو لنجاح دبلوماســـى لإحـــدى الدولتين ، بل يرجع ذلك إلى اليمنيين أنفسهم ، وبعيداً عن خطوط الحدود المقترحة ، ذلك أن العثمانيين الذين اتخذوا من اليمن والجزيرة العربية عمقاً لهم أثناء مواجهـــتهم لـــبريطانيا في الجنوب ، واجهو في اليمن ثورات وانتفاضات كبيرة ، أدت إلى تأرجح موقف الدولة العثمانية في اليمن ، مما ترتب عليه انحسار المد والتوسع العثمانى (٣٥) ، الـــذي كان يسعى لاستعادة نفوذه والسيطرة على تلك الأقاليم المجاورة لعدن التي أصبحت تحت دائرة النفوذ البريطانـــي .

والـــذي أثار قلق البريطانيين ودفعهم إلى عقد معاهدات الحماية مع زعماء القبائل المجاورة لعدن هو قيام الدولة العثمانية عام ١٨٧٥م ، بتنفيذ مشروع مد خط البر العثمانى من تعز إلى عدن ، ومن المعروف أن مشروع هذا الخط سوف يمر بأراضى تلك القبائل التي تـــرتبط مـــع بريطانيا بمعاهدات صداقة ، وفي الوقت نفسه كانت الدولة العثمانية متمسكة باستعادة نفوذها الفعلى على شبه الجزيرة العربية بأكملها ، كما قام أحمد أيوب باشا الوكيل العثمانى في عدن بإعلام السلطات البريطانية بأن عشائر لحج تحول دون مد الخط البرقى من

تعـز إلى عدن ، وأن الباب العالي سوف يضطر إلى استخدام القوة ضد هذه القبائل ، وقد عارضت بريطانيا اتجاه استخدام القوة ضد هذه القبائل حتى لا يؤدى ذلك إلى كسب جديد للنفوذ العثمانى ، وأصرت على أنه إذا أراد السلطان العثمانى مد خط البرق إلى عدن فيمكن أن يـتم ذلك عن طريق تقديم طلب إلى الحكومة البريطانية للوصول إلى اتفاق معها ، وألا يصاحب ذلك وجود قوات عثمانية في تلك المناطق (٣٦) .

ومما هو جدير بالذكر أنه منذ أن استولت بريطانيا على قبرص سنة ١٨٧٨م ، وكذلك بعد الاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢م ، ساءت العلاقات بين بريطانيا والدولة العثمانية ، لـذلك وجدت السلطات البريطانية في الهند أنه من المرغوب فيه وضماناً لبقاء ولاء تلك المـناطق لها لابد من عقد معاهدات حماية مع شيوخ القبائل العربية المجاورة لعدن تحسباً لأى عمل تقوم به الدولة العثمانية ، وقد مهد التدخل العثمانى في شؤون بعض هذه القبائل سنة ١٨٨٠م ، لإعداد الترتيبات الفعلية لعقد هذه المعاهدات (٣٧) .

وأمكن لبريطانيا خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر والأولى من القرن العشرين عقد سلسلة من معاهدات الحماية مع القبائل العربية في جنوب شبه الجزيرة أحرزت بمقتضـاها نفوذاً واسع النطاق في هذه المناطق رغم الاحتجاجات المستمرة من جانب الدولة العثمانية .

واستطاعت بريطانيا بتلك المعاهدات التي عقدتها مع شيوخ القبائل المجاورة لعدن أن تـتحكم في المنطقة بأكملها لتتجنب الصدام مع الدولة العثمانية ، ولتكون تلك المعاهدات عائقـاً أمام الدولة العثمانية لتكملة نفوذها على شبه الجزيرة العربية ، وكانت بريطانيا أثناء تلـك المـدة حريصة على وضع المنطقة تحت نفوذها إدراكاً منها لأهميتها وتحفظاً من توسع الدولة العثمانية ، كما أن المعاهدات السابقة التي فرضتها بريطانيا على زعماء القبائل اليمنية كانت متشابهة وصورة مكررة لبنود محددة ، كان أهمها تعهد السلاطين والأمراء اليمنيين في مقابـل تمـتعهم بالحماية البريطانية بعدم الاتصال أو الاتفاق أو التعاقد مع أى قوة أو دول أجنبـية إلا بعـد موافقة الحكومة البريطانية ، كما أنهم تعهدوا أيضا بعدم التنازل أو بيع أو تأجير أراضيهم لأى دولة أجنبية فيما عدا الحكومة البريطانية ، كما أنه لم تمض سنة ١٨٩٦م ، إلا وكانـت تلك المعاهدات قد تم عقدها بين الحكومة البريطانية وسبعة عشر حاكماً من الحكام العشرين في المناطق المحيطة بعدن (٣٨) .

وهكذا اتضحت السياسة البريطانية في عدن من خلال فرض معاهدات الحماية مع القبائل المحيطة بعدن وذلك بمرونة ودهاء عرفت بهما السياسة البريطانية وقد ترك لحكومة الهند البريطانية إدارة المنطقة حيث الرقابة غير المباشرة التي كانت تنفذ عن طريق سلطات عدن البريطانية التي لم تستطع السيطرة على النزاعات القبلية بل عملت على إزديادها من خلال إعطاء زعماء القبائل صفة الإمارة والسلطة والمشيخة ووضعتهم على رأس دويلات مصطنعة ، لذلك قامت في ظل السيطرة البريطانية مجموعة من المحميات التي أخذت تتكاثر كلما عقدت بريطانيا معاهدات جديدة للحماية مع زعماء آخرين (٣٩) .

ونتيجة لفرض الحماية البريطانية على النواحى التسع التي عرفت باسم محمية عدن الغربية إضافة إلى سلطات القعيطية والكثيرية والمهرة والتي عرفت بمحمية عدن الشرقية فقد سعى البريطانيون لفرض الحماية على حضرموت والمهرة تحسباً من تدخل نفوذ آخر خاصة الدولة العثمانية بسبب إدعائها الأحقية في الجزيرة العربية كلها .

لم يكن نظام الحماية البريطانية مجدياً لليمنيين على الإطلاق ، لأنه لم يوفر لقبائل المنطقة الحماية من الغزو الخارجى ، ولا من اشتعال نيران الحروب الداخلية فيما بينهم ، والدليل على ذلك ما أوضحه " اللورد بلهافن " الذي عمل مساعداً للمقيم السامى البريطاني في عدن عندما أكد أن نظام الحماية وما استتبعه من إهداء البنادق والأسلحة المختلفة لشيوخ القبائل اليمنية قد عمق الخلافات بين أبناء الوطن الواحد وزاد من حدة الحرب الأهلية وتفاقمها ، وأشعل لهيب القتال بين القبائل (٤٠) .

يتضح مما سبق أن الدولة العثمانية أرادت أن تمد سيطرتها على المناطق المجاورة لعدن لأنها رأت في نفسها أنها صاحبة الحق على تلك المناطق ، لكن بريطانيا وقفت لها بالمرصاد حيث عقدت معاهدات الصداقة مع شيوخ وزعماء القبائل المجاورة لعدن ، وكلما رأت بريطانيا خطة الدولة العثمانية لإعادة سيطرتها على تلك المناطق قام البريطانيون بتطوير سياستهم مع القبائل المحيطة بعدن ، وذهبت بريطانيا إلى أبعد من ذلك إذ استطاعت ان تعقد معاهداتها مع القبائل الموجودة في حضرموت ، خاصة مع تلك القبائل المحيطة بالساحل المطل على المحيط الهندى ، لأن السياسة البريطانية كانت تهدف إلى انفرادها بالنفوذ المطلق في عدن والمنطقة المحيطة بها ، وإبعاد أى نفوذ آخر يهدد مصالحها ، ونجحت تلك السياسة التي كانت بمثابة عائق أمام الدولة العثمانية في محاولاتها من أجل استكمال نفوذها على شبه الجزيرة العربية بوجه عام وعلى منطقة اليمن بوجه خاص .

هوامش المبحث الأول :-

١] حسن فوزى النجار : بريطانيا والجنوب العربي ، القاهرة د٠ت٠ ص ٤٠،٣٩

٢] محمد عمر حبشي : اليمن الجنوبي ، ترجمة د / إلياس فرح ، د / خليل أحمد خليل ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٠، ١١ ٠

٣] حسين فوزى النجار : مرجع سبق ذكره ص ٤٠ ٠

٤] المرجع السابق نفسه ص ١٩ ٠

٥] جورج انطونيوس : يقظة العرب ، تاريخ حركة العرب القومية ، تعريب د/ ناصر الدين الأسد ، د / إحسان عباس ، بيروت ١٣٨١هـ- ١٩٦٢م ص ١٣٤

٦] أمين سعيد : تاريخ اليمن السياسى منذ استقلاله في القرن الثالث عشر الهجرى القاهرة ١٣٧٨ها - ١٩٥٩م ص ٢٣ ، ٢٤ ٠

٧] محمد عمر حبشي مرجع سبق ذكره ص ١٢ ، و د / فاروق عثمان اباظة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ١٨٣٩هـ - ١٩١٨م القاهرة ١٩٧٦ ص ١٦٢٠

٨] د / جاد طه : سياسة بريطانيا في الجنوب العربي ، القاهرة ١٩٧٠م ص ١١٣ : ١٢٧ ٠

٩] محمد عمر حبشي : مرجع سبق ذكره ص ١٣ ٠

١٠] حسين فوزى النجار : مرجع سبق ذكره ص ٤٠ ٠

١١] محمد حسن عوبلي : اغتيال بريطانيا لعدن والجنوب العربي ، بيروت ١٩٧١ ص ١٥ ٠

١٢] محمد كمال عبد الحميد : الاستعمار البريطاني في جنوب الجزيرة العربية ، القاهرة د٠ت٠ ص ١١ ٠

١٣] هارولد ٠ف يعقوب : عدن وجنوب اليمن في ملوك العرد ، ترجمة : المضواحى بيروت ١٩٦٧م ص ٤٧ ، ٤٨ ٠

١٤] المصدر السابق نفسه ص ٥٥ ، ٥٧ ٠

١٥] المصدر السابق نفسه ص ٦٧ ، ٦٩ ٠

١٦] ساطع الحصرى : يوم ميسلون ، بيروت د٠ت٠ ص ٤٣ ٠
١٧] محمد حسن عوبلي : مرجع سبق ذكره ص ١٤ ٠
١٨] حسين فوزى النجار : مرجع سبق ذكره ص ٤١ ٠
١٩] جـان بيشـون : بـواعث الحـرب العالمين الأولى في الشرق الأدنى ، ترجمة محمد عزت دروزة ، بيروت د٠ت٠ ص ٧٣ - ٧٤ ٠
٢٠] محمد عمر حبشي : مرجع سبق ذكره ص ١٣ ٠
٢١] جان بيشون : مرجع سبق ذكره ص ٧٤ ٠
٢٢] محمد عمر حبشي : مرجع سبق ذكره ص ١٣ ٠
٢٣] د / جاد طه : مرجع سبق ذكره ص ١٣٨ ، ١٤٣ ٠
٢٤] عـبد الواسـع بـن يحـيى الواسعى : تاريخ اليمن ، المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ، القاهرة ١٣٤٦هـ _١٩٢٨م ص ١٦٩ ٠
٢٥] د / أحمـد فخـرى : الـيمن ماضـيها وحاضرها ، القاهرة ١٩٥٧ ص ١٦٢ ، ١٦٣ ٠
٢٦] أمين الريحانى : ملوك العرب ، بيروت ١٩٥١ ص ٤١٨ ٠
٢٧] محمود كامل المحامى : مرجع سبق ذكره ص ٢٤١ ٠
٢٨] د / جاد طه : مرجع سبق ذكره ص ٣٥٣ ٠
٢٩] محمد عمر الحسينى : مرجع سبق ذكره ص ١٧
٣٠] جـان جـاك بـيربى : جزيرة العرب ، ترجمة / نجدة هاجر ، وسعيد الغز ، بيروت ١٩٦٠ ص ١٨٥ : ١٨٦ ٠
٣١] أمين سعيد : مرجع سبق ذكره ص ٥٢ ٠
٣٢] جان جاك بيربى : مرجع سبق ذكره ص ١٨٠ ٠
٣٣] نـبيل عـبد الحـى رضـوان : الدولة العثمانية وغرب الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس ١٨٦٩ - ١٩٠٨ ، جدة ص ١٠٣ ، ١٤٧ ٠
٣٤] د / فاروق عثمان أباظة : مرجع سبق ذكره ص ٤٢٠ ٠
٣٥] د / جـاد طـه : سياسـة بريطانيا في جنوب اليمن ، القاهرة ١٩٦٩م ص ٣٠٣ ، ٣٠٦ ٠
٣٦] د / فاروق عثمان اباظة : مرجع سبق ذكره ص ٤٢٠ ٠

٣٧] د / جـاد طـه : سياسـة بـريطانيا في جـنوب اليمن مرجع سبق ذكره ص ص ١٨١ ٠

٣٨] د / فاروق عثمان أباظة : مرجع سبق ذكره ص ٢٤٢ – ٢٤٥ ٠

٣٩] محمد عمر حبشي : مرجع سبق ذكره ص ١٧ ٠

٤٠] د / فاروق عثمان أباظة : مرجع سبق ذكره ص ص ١٠٧ ٠

* * *

المبحث الثاني

صفقة قناة السويس والاحتلال البريطاني لمصر

١٨٧٥ – ١٨٨٢م.

منذ افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩م ، بدأت بريطانيا في العمل على تثبيت نفوذها ومركزها في مصر .

وفى عام ١٨٧٥م ، أخذ معين المال ينضب من بين يدى الخديوى إسماعيل بعد القروض الباهظة التى استدانها لإنفاقها على المشروعات الإصلاحية التى قام بها ففكر فى بيع أسهم مصر فى قناة السويس ، وعرضها على فرنسا فترددت فى هذا الشأن ، لكن الحكومة البريطانية بادرت بشرائها ، لأنها وجدت فى هذه الصفقة فرصة سانحة لوضع يدها على قناة السويس (١) .

وكان أيضاً من نتائج هذه الصفقة ان استطاعت بريطانيا التدخل فى شؤون مصر المالية لمراقبة المصروفات والإيرادات ، واعتبرت مصر من بين مناطق النفوذ التى جب أن تحرص عليها ، أما من جانب السياسة المصرية فإن بيع حصة مصر فى أسهم قناة السويس كان مقدمة للتدخل الفعلى فى مالية مصر ، إذ لم تمض ثلاثة أيام على بيع الأسهم حتى طلب الخديوى إسماعيل من الجنرال ستانتون **Stanton** القنصل البريطانى العام بالقاهرة ، بأن تعين بريطانيا موظفين يستعان بهم فى إدارة شؤونه المالية ، فأجابت الحكومة البريطانية على ذلك فى السابع والعشرين من نوفمبر ١٨٧٥م ، بأنها ألفت بعثة من خمسة أفراد من كبار موظفى الحكومة تحت رئاسة " كيف " رئيس الصيارفة ووجهت إليها التعليمات بأن تفاوض الخديوى وحومته فى إدارة مصر ومركزها المالى ، وأن تقف على حقيقة الاضطراب المالى وتسدى النصح للخديوى (٢) .

وفى ربيع عام ١٨٧٦م ، تم توحيد الديون العديدة التى استدانها الخديوى إسماعيل فأصبحت ديناً عاماً بلغت قيمته إحدى وتسعون مليون جنيه ، وكان هذا الإجراء قد أتخذ بهدف تنظيم حالة الفوضى التى وصلت إليها البلاد ، ثم وضعت شؤون المصروفات والإيرادات تحت مراقبة ثنائية بين بريطانيا وفرنسا (٣) .

ولم تقف بريطانيا عند ذلك الحد من التدخل فى شؤون مصر ، بل تطور الأمر على مــر السنين ، ففى عام ١٨٧٧م ، أوعزت بريطانيا إلى الخديوى إسماعيل أن يعين غوردون باشا حاكماً عاماً للسوذان ، والتعيين فى هذا المنصب من اختصاص الدولة العثمانية ، ويتم هــذا التعــيين من قبيل الباب العالي ، وهى المرة الأولى فى تاريخ مصر التى يسند فيها هذا المنصب السامى إلى أجنبي ، لكن العلاقات الودية كانت توثقت بعد افتتاح قناة السويس بين الخديوى اسماعيل وبريطانيا وتعددت مظاهرها ، ففى الرابع عشر من أغسطس ١٨٧٧م ، عقدت معاهدة بين الخديوى إسماعيل وبريطانيا للتعاون على إبطال الرقيق ، وأخذت بريطانيا بعــد ذلك تسعى لامتداد سلطة مصر على الساحل الشرقى لأفريقيا لترث ذلك فيما بعد ، وفى السابع من سبتمبر ١٨٧٧م ، اعترفت بريطانيا بسلطة مصر فى بلاد الصومال الشمالية ، فكانت هذه المعاهدة مظهراً من مظاهر العلاقات الودية بين مصر وبريطانيا (٤) .

وفى الوقت نفسه لم تعط بريطانيا أى اهتمام للدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر ، كما أن سياسة الود والقرب من جانب بريطانيا للخديوى إسماعيل أتت بعد ضعف فرنســا ، إذ اتجــه الخديــوى إسماعيل نحو بريطانيا لكى تساعده فى الحصول على نوع من الاستقلال الذاتى وكانت بريطانيا تشجعه على ذلك لتزيد من الصعوبات وتفاقم الموقف بين مصــر والدولــة العثمانية ، لكن التنافس بين فرنسا وبريطانيا ظل قائماً ، إلا أن بريطانيا لم تــرغب فى إغضاب الحكومة الفرنسية بدليل موافقة بريطانيا على اقتراح فرنسا بألا تدخل المســألة المصــرية فى مناقشات مؤتمر برلين ١٨٧٨م ، ورأت استبقاء لصداقة فرنسا عدم احــتلال مصــر ، واستعاض سالسبورى Salispury عن ذلك ـ باحتلال مصر وقناة السويس ـ باحتلال جزيرة قبرص التى تشرف على آسيا الصغرى ومدخل قناة السويس معاً وذلك تمهيداً لاحتلال مصر (٥) .

تعقدت المسألة المصرية فى أواخر عصر الخديوى إسماعيل حيث بدت قوة المعارضة المصرية تظهر وذلك نتيجة للتدخل الأجنبى فى شؤون مصر المالية والسياسية ، مما أثار مخاوف بريطانيا وفرنسا فرتبتا مع السلطان العثمانى عزل الخديوى إسماعيل (٦) .

وفى السادس والعشرين من يونيو ١٨٧٩م ، تولى الخديوى توفيق حكم مصر التى كان مركزها الدولى فى ذلك الوقت غير واضح فلا هى دولة مستقلة ، ولا هى ولاية تابعة للدولة العثمانية ، وإنما طبقاً لمعاهدة لندن ١٨٤٠م ، تعد جزءاً من أملاك الدولة العثمانية ، وظلت بريطانيا وفرنسا فى تعارن متواصل بينهما من أجل الاستمرار فى تدخلهما فى الشؤون

المصرية ، وقد استهل الخديوى توفيق حكمه بصدور فرمان فى السابع من اغسطس ١٨٧٩ م، مقيد لسلطة الخديوى فى مصر ، ومن ثم أخذت سلطة الخديوى فى مصر تتجه نحو الضعف والتراجع ، وبدأت كفة النفوذ الأوروبى ترجح [٧] .

شعر الخديوى توفيق بنفوذ الدول الأوروبية ممثلاً فى عزل والده عن حكم مصر ، ولكـــنه رأى أن الفضل فى إبعاد النفوذ العثمانى وتدخله فى شؤون مصر يرجع إلى بريطانيا وفرنسا اللتين وقفتا أمام محاولات السلطان عبد الحميد الثانى عندما أراد سحب الامتيازات الـــتى حصـــلت عليها مصر خاصة استقلال مصر فى إدارة شؤونها الداخلية ، وتأكيد نظام الوراثة [٨] .

وتوالت أحداث القرن التاسع عشر والتدخل الأجنبى فى شؤون مصر الذى ترتب عليه ضعف الروابط بين مصر والدولة العثمانية فى تزايد مستمر مما أثار الروح الوطنية وإبراز معالمها عندما أدرك المصريون المدى الذى بلغه الأجانب فى إدارة شؤون بلادهم وتسييرها ، عندما ثارت العاطفة الوطنية وظهر السخط واضحاً [٩] .

ورأى الـــباب العـــالى فى ضياع سلطة الخديوى بعد حوادث قصر عابدين سبتمبر ١٨٨١م ، الـــتى قادهـــا أحمد عرابى فرصة مواتية لإرسال جيش عثمانى إلى مصر لاسترداد نفـــوذ الدولـــة العثمانـــية فى مصر مرة أخرى ، وضماناً لقناة السويس التى تسهل وصول الإمـــدادات إلى بلاد الحجاز وجنوب الجزيرة العربية للسيطرة عليها وإبعاد الخطر الأجنبى عنها ، لكن بريطانيا وفرنسا وقفتا وعارضتا أى تدخل يقوم به السلطان العثمانى فى مصر ، فاكتفـــى الســـلطان عـــبد الحميد الثانى بإيفاد بعثة إلى مصر للتحقيق فى أسباب العصيان العسكرى ، وعندئذ أرسلت الدولتان بريطانيا وفرنسا سفنهما الحربية إلى مياه الإسكندرية للقيام بمظاهرة بحرية ، مما أدى إلى إرغام البعثة العثمانية إلى مغادرة مصر فى الثامن من أكتوبر ١٨٨١ [١٠] .

وتطورت الأحداث فى مصر فانقلبت الحركة الوطنية إلى ثورة ضد سلطة الخديوى ، فأصـــبح على بريطانيا وفرنسا أن تقوم بتدخل مشترك لحماية مصالحهما فى مصر [١١] مما أدى إلى إنعقـــاد مؤتمر الآستانة فى الثالث والعشرين من يونيو ١٨٨٢ م ، من أجل البحث ومناقشـــة المسألة ، وانتهى المؤتمر فى السادس من يوليو ١٨٨٢م ، الذى قرر تسوية المسألة المصرية عن طريق التدخل العثمانى ، وتضمن دعوة الباب العالى إلى إرسال قوة عسكرية إلى مصر لإقرار النظام بشروط محددة حددها جرانفيل **Granville** وزير خارجية بريطانيا فى

قـــوله : أن تكون القوات العثمانية تحت قيادة الخديوى، وألا تبقى فى مصر أكثر من ثلاثة شهور ، وأن يتعهد السلطان بعدم المساس بامتيازات الخديوية وتعهداتها الدولية .

لكـــن الســـلطان العـــثمانى رفض إجابة هذه الدعوة لأنها جاءت فى وقت متأخر وتتعارض مع فكرة التدخل العثمانى لأنها تقيده بشروط مهينة ، ولا تتفق مع حقوق وسيادة الدولة العثمانية على هذه البلاد وكذلك لم يكن السلطان العثمانى يريد أن يظهر بمظهر من يخضـــع لسلطان الدول الأجنبية فى مسألة داخلية ، كما أنه لا يريد إثارة مشاعر المسلمين ضـــده بهذا العمل ، وقد انتهزت بريطانيا هذه الفرصة وعزمت على التدخل فى مصر ، إذ توفرت العوامل لانفرادها بالتدخل المسلح ، وأرادت وضع المؤتمر أمام الأمر الواقع (١٢) .

وكـــان تردد فرنسا من العوامل التى أدت إلى إنفراد بريطانيا بالتدخل ، فقد عد فريسنيه **freycinet** رئيس وزراء فرنسا : أن الاستنجاد بالقوات العثمانية ليس له أى مـــبرر بعد استقالة محمود سامى البارودى ، وفضل انتظار ما قد تتمخض عنه الأحداث فى مصر (١٣) .

وكانت بريطانيا قد سعت بالطرق الدبلوماسية فى وضع خطة لغزو قناة السويس ، إذ ارسلت فى الثلاثين من يونيو ١٨٨٢م. إنذاراً إلى الباب العالى ذكرت فيه أنها ــ بريطانيا ــ : تعد نفسها مكلفة بإقرار النظام فى مصر ، وأنها ستمنع القوات العثمانية من النزول فى مصر ، إلا إذا أعلنت الدولة العثمانية أن أحمد عرابى ثائر فى مصر ، فأصدر الباب العالى هذا الإعـــلان فى الخامس من سبتمبر ١٨٨٢م. فأستغلت بريطانيا ذلك المنشور ضد العرابيين أســـوأ اســـتغلال ، كمـــا حاولت بريطانيا أن تعطى نفسها صفة قانونية فى احتلال القناة والحصـــول علـــى تفـــويض مـــن الخديوى يجيز لها هذا الاحتلال ، فأبرق اللورد جرانفيل **Granvill** إلى الأميرال سيمور **Seymour** فى الرابع والعشرين من يوليو ١٨٨٢م. طالباً منه أن يحصل من الخديوى على السلطات التى تخوله حق احتلال قناة السويس ، وقد كتب الخديوى التصريح المطلوب فى الحادى والثلاثين من يوليو ١٨٨٢م.

وكانـــت خطة بريطانيا لاحتلال مصر قامت على أساس إتمام احتلال منطقة قناة السويس قبل التفرغ لمقاتلة الجيش المصرى (١٤) ، فصرحت لقائدها البحرى فى بورسعيد أن يحتل أجزاء من القناة ، ما يراه ضرورياً لاتخاذ القناة قاعدة حربية ، فإذا ما احتلت بريطانيا قـــناة السويس فإنه من السهولة السيطرة على بقية الأقاليم ، وفى الوقت الذى أرسلت فيه بـــريطانيا الحملة على الإسكندرية ، أرسلت حملة أخرى لتسير بطريق قناة السويس وتنضم

إليها قوة قادمة من الهند ، كما تنضم إليها الحامية الموجودة فى الإسكندرية ، ويقوم بوشمب سيمر **Beauchamp Seymour**
قائـــد القوات البحرية بمعاونة هذه الحملة ، وأرسلت تعليمات إلى الأسطول بمقتضاها يقوم بحمايـــة القـــناة ، وأن تتخذ الحملة البريطانية القناة قاعدة لها ، وخرجت السفن البريطانية خلسة من الإسكندرية فى ظلام الليل واحتلت بورسعيد فى عشرين من أغسطس ١٨٨٢م ، واتخذت من مبانى شركة قناة السويس بمدينة بورسعيد مركزاً لأعمالها الحربية (١٥) .

وأوقفـــت بـــريطانيا مـــرور السفن عبر القناة واعترضت شركة القناة على هذا التصـــرف وطلبت من الدول أن ترسل كل منها سفينة حربية لمنطقة القناة لحماية حيادها ، وأرســـل مجلـــس إدارة الشركة احتجاجاً إلى الدول جاء فيه : " أن الخديوى لا يملك تقييد النصـــوص الصريحة فى صك الامتيازات ، وأن الشركة لا تقبل الاعتداء على حياد القناة ، وتعلن معارضتها للأعمال التى تستند إلى إدعاءات سياسية غير مشروعة " (١٦) .

وكانـــت الحكـــومة البريطانية من جانبها تخشى أن يقوم المصريون بردم القناة أو السيطرة عليها أو إتلافها ، وكانت تقارير ممثلى بريطانيا متشائمة وتنذر بالخطر الشديد على هـــذا الطـــريق البحرى الهام (١٧) ، وفى الرابع عشر من سبتمبر ١٨٨٢م تمكنت القوات البريطانية من احتلال القاهرة نفسها (١٨) .

وكانـــت بـــريطانيا تخشـــى أن تثور المشاعر الإسلامية ضدها بعد احتلالها لمصر فحصلت من الخديوى توفيق على رسالة شكر يعرب فيها عن امتنانه للمساعدة الثمينة التى قـــام بهـــا الجنود البريطانيون لإعادة الأمن إلى بلاده ، وبذلك أظهرت بريطانيا أعمالها على شكل تنفيذ إرادة السلطان العثمانى من خلال ما أعلنه من أن أحمد عرابى ثائر ، وتلبية لرغبة الخديوى المصرى (١٩) .

كمـــا سعت بريطانيا فى دعم سلطة الخديوى ، وإعادة العلاقات بين مصر والدولة العثمانـــية فى حدود الفرمانات ، وسعت أيضاً لإيجاد رجل يقوم محل المعتمد البريطانى فوقع اختيارها على كرومر **Croomer** الذى ظهرت خبراته فى الإدارة ليكون قنصلاً عاماً لها ، وفهم " كرومر " الاحتلال ومشاكله ووجهه توجيهاً لتوطيد أركانه .

وكانـــت بـــريطانيا بعد احتلالها لمصر قد أخذت تستخدم المناورات وبذل الوعود واستطاعت أن تؤجل النظر فى مسألة قناة السويس مدة سنتين كاملتين وفى عام ١٨٨٥م ، ســـعت إلى فكرة عقد مؤتمر دولى ، وقد بدأ انعقاد هذا المؤتمر فى مارس ١٨٨٥م ، بباريس

واشتركت فيه الدول الكبرى والدولة العثمانية وأسبانيا وهولندا ، ودعيت إليه مصر بصفة استشـــارية ، وخـــلال المؤتمر بذلت بريطانيا جهوداً كبيرة من أجل إبقاء سيطرتها على قناة السويس ، بينما حاولت الدول المنافسة لها إضعاف ذلك النفوذ وضمان مصالحها الذاتية ، وتـــرتب علـــى الخلافات التى قامت بين أعضاء الدول المشاركة فى المؤتمر أنها عجزت عن الوصول إلى نتيجة ، على الرغم من أنه استغرق شهرين ونصف [٢٠] .

ولكـــن بـــريطانيا اســـتطاعت أن تؤكد حقوق الحكومة المصرية ، عندما وجدت محـــاولات مندوب الدولة العثمانية تسجيل حقوق العثمانيين ونفوذ السلطان العثمانى على مصـــر ، رليس غريباً على مندوب الدولة العثمانية أن يبذل تلك المحاولات ليضمن السيادة على ذلك الإقليم الحيوى الذى يساعد فى ربط منطقة جنوب الجزيرة العربية وبلاد الحجاز ومناطق البحر الأحمر الأخرى بالآستانة عاصمة الدولة العثمانية .

وعندما رأى السلطان العثمانى التوسع البريطانى طالب الحكومة البريطانية بالجلاء لأنه كان يخشى فى هذه الحالة أن تفقد الدولة مركزها فى مصر ، وبالتالى فى قناة السويس مما يتـــرتب علـــيه صـــعوبة الاتصال والحركة فى مناطق البحر الأحمر وجنوب الجزيرة العربية والحجـــاز ، فعرضت بريطانيا على السلطان العثمانى الدخول فى مفاوضات لتحديد تاريخ الجلاء عن مصر وشروطه ، وكانت حكومة المحافظين برئاسة سالسبرى ، التى خلفت حكومة الأحـــرار تـــرغب فى إزالة ما تركه الاحتلال البريطانى من توتر العلاقات البريطانية بالدولة العثمانية وبفرنسا ، فأرسلت بعثة " دور مندولف " لمفاوضة الدولة العثمانية فى هذا الشأن ، وقـــد اتفق المفاوضون على توقيع اتفاقية ، عرفت باتفاقية الآستانة وتضمنت جلاء القوات البريطانية عن مصر خلال سبع سنوات من تاريخ إبرام الاتفاق ، أى فى سنة ١٨٩٠م ، إلا إذا قام خطر داخلى أو خارجى يقتضى تأجيل موعد الجلاء حتى يزول هذا الخطر [٢١] لكن السلطان العثمانى رفض ذلك الاتفاق من أساسه على اعتبار أنه يتعارض مع حقوق السيادة العثمانية على مصر ، كذلك أدرك السلطان العثمانى أن بريطانيا تماطل فى موضوع الجلاء ، ولا تريد فعلاً الانسحاب .

وأحست بريطانيا بموقف الدول من احتلالها لمصر وسياستها فى وادى النيل فرأت إهمـــال موضوع الجلاء واستمرت تسير فى سياستها التى تمليها عليها مصالحها الاستعمارية خاصـــة بعـــد تولى روزبرى rospury ، وزارة الخارجية البريطانية ، لأنه كان من أقوى

الاســـتعماريين الـــبريطانيين ، وهـــو الـــذى ثـــنى " جلادستون" عن فكرته فى الجلاء عن مصـــــــــر (٢٢) .

وترتب على عدم جلاء القوات البريطانية عن مصر ، السيطرة الكاملة على مصر وضياع مركز الدولة العثمانية إلا فى الناحية الشكلية ، كما أن بريطانيا حصلت على قسط فى إدارة قـــناة السويس ، فقد كان لها ثلاثة مقاعد من بين أربعة وعشرين مقعداً فى مجلس إدارة الشركة ، وذلك بعد أن اشترت أسهم مصر من الخديوى إسماعيل عام ١٨٧٥م ، ثم زيـــدت هـــذه المقاعد إلى سبعة مقاعد منذ عام ١٨٨٢م ، بعد الاحتلال البريطانى لمصر ، واعطيت هذه المقاعد الزائدة لمندوبى المصالح التجارية البريطانية .

وخـــلال ســـنوات السيطرة البريطانية على مصر تحولت قناة السويس إلى قاعدة عســـكرية بريطانية ذات أهمية كبرى لها فى الشرقين الأدنى والأوسط ، وترتب على احتلال بـــريطانيا لمصر وهيمنتها على قناة السويس أن الدولة العثمانية فقدت جزءاً عاماً من ولاياها المترامية الأطراف ، لكن من الناحية الأسمية ظلت مصر تابعة للدولة العثمانية لذلك استطاع السلطان العثمانى أن يثير موضوع المسألة المصرية عندما عين الخديو عباس حلمى الثانى عام ١٨٩٢م ، فـــوجد السلطان العثمانى فرصة لاقتطاع شبه جزيرة سيناء من مصر وضمها إلى مـــناطق السيادة العثمانية فى الشام والحجاز ، وساعد فى ذلك ميول الخديوى الجديد عباس حلمى الثانى نحو الدولة العثمانية وكان هذا تشجيعاً للسلطان العثمانى لتحقيق خطته فى إعادة السيطرة على الضفة الشرقية لقناة السويس ، ولم يلق هذا الاتجاه معارضة من الخديوى عباس حلمـــى الثانى ، وكانت حجة الدولة العثمانية فى ذلك تقوم على أن هذه المنطقة فى الأصل تابعـــة لولاية الحجاز ، فأعادها الدولة العثمانية للخديو إسماعيل بقصد حاميات عثمانية من الجند فى الوجه ، والمويلح ، وضبا ، وسيناء لتأمين قوافل الحج التى تقع على الطريق البرى إلى الحجـــاز ، ثم استعادت الدولة الوجه ، وضبا ، والمويلح ، وتريد أن تستعيد ما بقى من المناطق لولاية الحجاز ، وتفاقم الموقف بين بريطانيا والدولة العثمانية بسبب هذه المشكلة ــ مشـــكلة طابـــا ــ لكـــن تم حل هذه المشكلة فى عام ١٩٠٦م ، وصدر فرمان من الدولة العثمانية بأن تكون سيناء داخل الحدود المصرية ، وتضم العقبة لولاية الحجاز (٢٣) .

وبذلك فقدت الدولة العثمانية مصر من الناحية الفعلية ، هذه الولاية الحيوية التى كانت تمد خزانة الدولة بالأموال والغلال ، كما أن حكام مصر كانوا يمدون العثمانيين بالمؤن الـــتى كانـــت تلزم الحملات التى ترسلها الدولة العثمانية إلى بلاد الحجاز أو اليمن والبحار

الجنوبية لدعم النفوذ العثمانى ، علاوة على ذلك فإن سلاطين الدولة العثمانية كانوا يعتمدون قبل افتتاح قناة السويس على باشوات مصر لإخضاع المناطق الثائرة سواء أكان ذلك فى بلاد الحجاز ، أو فى جنوب الجزيرة العربية ، فترتب على ذلك أن الدولة العثمانية فقدت مصر والامتيازات التى كانت تحصل عليها من مصر ، وفقدت قناة السويس التى تربط عاصمة الدولة بمناطق البحر الأحمر والحجاز ، وجنوب الجزيرة العربية ، التى كانت تسهل عليها إرسال الحملات التأديبية إلى المناطق الثائرة ضدها ، علاوة على فقدان العوائد المالية من رسوم المرور فى قناة السويس ، مما أدى فى النهاية إلى ضعف نفوذ الدولة العثمانية فى هذه المناطق ..

******

هوامش المبحث الثانى :-

١] د / مصطفى الحفناوى : قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ، ج١ القاهرة ١٩٤٥م ، ص ٣٧٤ .

٢] شونفليد ، هيو ، ج : قناة السويس ، ترجمة أحمد خاكى : القاهرة ١٩٤٥ ص ٩٠ - ٩١ .

٣] د / السيد رجب حراز : المدخل إلى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثمانى إلى الاحتلال البريطانى ١٥١٧ - ١٨٨٢ ، القاهرة ١٩٧٠ ص : ٣٧٦ وشونفليد ، هيو ، ج : مصدر سبق ذكره ص ٥٦ .

٤] عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل ، القاهرة ١٩٣٢م ص ٩٢ - ٩٣

٥] د / محمد مصطفى صفوت : إنجلترا وقناة السويس (١٨٤٥ - ١٩٥٦ م) القاهرة ١٩٥٦ م ص ٦٠ - ٦١ .

٦] د / محمد مصطفى صفوت : مصدر سبق ذكره ص ٦٢ .

٧] د / عبد العزيز رفاعى : قضية الجلاء عن مصر بين سنتى ١٨٨٢ - ١٩٠٧م ، القاهرة ١٩٦١م ص ١١ .

٨] د / حسن احمد محمود وآخرون : مصر فى العصور الوسطى والحديثة ، القاهرة د.ت . ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

٩] د / محمد بديع شريف وآخرون : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة ، مراجعة الأستاذ / محمد شفيق غربال ، القاهرة د.ت. ص ٥٤٧ .

١٠] د / عبد العزيز رفاعى : مصدر سبق ذكره ص ٣٢ .

١١] د / حسن احمد محمود وآخرون مصدر سبق ذكره ص ٢٤٠ .

١٢] د / مصطفى الحفناوى : مصدر سبق ذكره ص ١٠٥ ج ٢ .

١٣] لجنة الدراسات الثقافية : قناة السويس ماضيها وحاضرها ، القاهرة ١٩٥٥ ص ٢٦ .

١٤] د / محمد مصطفى صفوت مصدر سبق ذكره ص ٨٣ - ٨٤ .

١٥] د / مصطفى الحفناوى : مصدر سبق ذكره ص ١٠٨ ج ٢ .

١٦] د / محمد مصطفى صفوت مصدر سبق ذكره ص ٦٩ .

١٧] شونفيلد : هيو ، ج : مصدر سبق ذكره ص ٥٧ .

١٨] ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، بيروت ١٩٦٥ ص ١٦٥ .

١٩] المرجع السابق نفسه ص ١٦٥ .

٢٠] د / عبد العزيز محمد الشناوى وآخر : وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر ، دار المعارف ، الإسكندرية ١٩٦٩م ، ص ٦٤٨ - ٦٤٩ .

٢١] د / مصطفى الحفناوى مصدر سبق ذكره ص ١٥٩ ج ٢ .

٢٢] حسين فوزى النجار : السياسة والاستراتيجية فى الشرق الأوسط ، القاهرة ١٩٥٣م ، ج ١ ص ٢١٧ - ٢١٩ .

٢٣] المرجع السابق ج ٢ ص ٢١٨ - ٢٢٠ .

*****

المبحث الثالث

ثورة اليمنيين على الحكم العثمانى

١٨٩١ – ١٩٠٥ م

لم يكن الحكم العثمانى مستقراً فى اليمن بسبب استمرار الثورات ، إذ لم تكن للعثمانيين شعبية فى تلك المناطق ، كما أن الحروب التى شنها اليمنيون من المرتفعات الجبلية منذ عام ١٨٩٢م ، كبدت الدولة العثمانية خسائر فادحة حتى سمى اليمن بمقبرة الأتراك ، وقد ذكر أحد الأئمة فى صنعاء : " أنه إذا أراد العثمانيون البقاء لسلطتهم فى بلاد اليمن أن يتخلوا للعرب عن الأماكن التى يكون الحرف الأول من أسمها مكتوباً بالصاد ، وذلك مثل صنعاء ، وصبر ، وصعده ، وصبيا وكانت الفكرة تقوم على إساس أن العثمانيين يحتفظون بالمدن الساحلية ، وأن يتركوا داخل البلاد للأئمة الذين كانوا عنصراً مزعجاً للعثمانيين ، خاصة رجال قبائل حاشد وبكيل الذين يعدون من أقوى البطون والعشائر المحاربة فى اليمن خاصة الذين يطلقون عليهم (ذو محمد ، ذو حسين) إذ كانوا يقومون بثورات وانتفاضات لا تنقطع ضد الحكم العثمانى " [(١)] .

وقد كان بعض الولاة العثمانيين هم السبب المباشر فى ثورة الأهالى عليهم لأنهم اتبعوا منهج الصلف والتعسف وسيلة لتوطيد الحكم العثمانى فى اليمن ، وكثيراً ما كانوا يعتقلون العلماء والتجار ، لا سيما فى صنعاء ، بتهمة ولائهم للأئمة الزيديين .

وكان من هؤلاء الولاة عثمان باشا (١٣٠٥ – ١٣٠٧هـ / ١٨٨٨ – ١٨٩٠ م) الذى انتهج سياسة الإرهاب فى اليمن ، وأشاع أخذ الرشوة ، كما قام باعتقال العلماء ، ومنهم الشيخ عبد الله الضلعى ، والشيخ يحيى بن محمد المجاهد التعزى .

ثم تولى بعد عثمان باشا الولاية فى اليمن عثمان نورى باشا ، وكان مستقيماً ومتواضعاً ، إلا أن كبار موظفى العثمانيين فى اليمن تآمروا ضده ، وعملوا على عزله من منصبه ، ورجع إلى الآستانة .

ثم تولى بعده الولاية إسماعيل حقى باشا (١٣٠٧– ١٣٠٨هـ / ١٨٩٠ – ١٨٩١م) وفى السنة التى تولى فيه الحكم توفى الهادى الإمام شرف الدين بن محمد ، وأجمع أهل الأهنوم على مبايعة محمد بن يحيى حميد الدين ، الذى سجن فى الحديدة ، واستطاع

الفـــرار إلى الأهنوم ، وتلقب بالمنصور [٢] ، ومن الأهنوم أخذ يرسل إلى أتباعه ورجاله فى جميع أنحاء اليمن لإثارة القبائل ضد العثمانيين [٣] .

وقد أيدته جميع القبائل واستجابت لنداء الحرب ، وكان من الطبيعى أن يقع خروج الإمام المنصور من صنعاء وتحريض القبائل اليمنية على حرب العثمانيين وقعاً أليماً على رجال الدولـــة العثمانـــية ، وذلك لما للمنصور من المكانة والنفوذ بين رجال القبائل الذين يخشون بأســـهم ، وكانت قبائل اليمن قد سئمت من ضغط الولاة العثمانيين ، لذلك التفت بسرعة حول الإمام المنصور واتجهوا إلى حصار صنعاء عام ١٨٩١م . بعد أن سيطروا على حصن " ظفير حجة ؟ ، وسور ، والشرف ، وبريم ، وذمار ، وخفاش ، وملحان ، والروضة ، وغيرها من جهات صنعاء ، وقبيل أن يحاصر الإمام المنصور مدينة صنعاء قام بالحرب على العثمانيين فى بـــلاد الشرف عام ١٨٩٠م . ، إذ تمكن من هزيمتهم ، وقتل محمد عارف قائد الحملة العثمانـــية هـــناك ، وكـــان لهـــذه المعـــركة آثار سيئة على العثمانيين فى اليمن إبان ذلك الوقـــــت [٤] .

كما أن قبائل همدان ثارت عام ١٨٩١ م (١٣٠٨هــ) بزعامة شيخها يحيى بن يحـيى دوزة ، فخرج على باشا من صنعاء يرافقه السيد محمد بن على الشريع شيخ ضلاع وعندما وصلوا إلى منطقة قاع المنقب ، تقابلوا مع أحمد محمد الشرعى الحسنى ، ومعه جموع كثيرة العدد من القبائل اليمنية ، وقد نشب بينهم وبين القوات العثمانية قتال عنيف ، كان ذلـــك فى عهد الوالى العثمانى إسماعيل حقى باشـــا (١٣٠٧ - ١٣٠٨ هــ / ١٨٩٠ - ١٨٩١ م) ، بعد ذلك ثارت القبائل اليمنية ضد العثمانيين فى معظم أنحاء اليمن خاصة فى بلاد البستان ــ هى مخلاف كبير يقع غربى صنعاء ، ويجاور آنسى والخيمة وهمدان وسنحان ــ إذ قام اليمنيون هناك بانتزاع أسلاك البرق ، ونهبوا البريد الوارد من الآستانة إلى صنعاء " عاصمة الولاية " [٥] .

وقـــد ســـبقت هـــذه المناوشات عملية حصار صنعاء التى تمت بعد هزيمة القوات العثمانـــية وتـــراجعها أمام هجمات القبائل اليمنية فى المواقع السابقة ، وقد اشتدت وطأة الحصـــار حـــول صنعاء ، وتعز ، واستمر شهرين ، ويصف الواسعى الحالة السيئة فى اليمن وقتـــئذ خاصة فى صنعاء فيقول : " وحصل للناس ضيق شديد بالحصار لعدم الطعام ، فمن كان به طاقة وقدر على الصبر ومعه ما يقوم بقوته هو وأهله قعد فى صنعاء مع الخوف ، وقد باع الناس أموالهم وأمتعتهم بثمن رخيص فى مقابل قوت لهم ، ومن لم يقدر على الجلوس فى

صنعاء خرج هو وأهله وظن أنه يخرج من الظلمات إلى النور ، فإذا خرجوا لقيتهم القبائل الذين عاثوا فى الأرض فساداً وبغوا على إمام الحق بغياً وعناداً [٦] .

وعندما اشتدت المقاومة والهجمات على العثمانيين فى اليمن أرسلت البرقيات العديدة من الحديدة إلى الآستانة لطلب الإمدادات العسكرية اللازمة لإخماد الثورة ، لذلك أرسل السلطان العثمانى القائد أحمد فيضى باشا إلى الحديدة لقمع الثورة ، وعينه والياً على اليمن ، فتقدم أحمد فيضى باشا على رأس قواته فقضى على الحصار ، وتمكن من دخول صنعاء بعد حروب قاسية ومواجهات عنيفة بينه وبين اليمنيين فى صنعاء [٧] .

ولما دخل أحمد فيضى باشا صنعاء أعلن عفواً عاماً عن القبائل التى حاربت العثمانيين ، وطلب منها التفرق والعودة إلى المناطق التى أتت منها ، ليتمكن من التفاهم مع الإمام المنصور ، لبحث إمكانية التشاور والصلح ، لكن الإمام المنصور وضع شروطاً للصلح لم يقبل بها الجانب العثمانى .

ثم أوفد السلطان العثمانى السيد محمد الرفاعى إلى اليمن لاستئناف مباحثات الصلح مع الإمام المنصور فى عام ١٣١٤هـ / ١٨٩٧ م ، وجرت بينهما مراسلات لم تفلح فى تحقيق اتفاق بين الجانبين [٨] .

وعلى الرغم من ذلك فقد حاول السلطان العثمانى البحث عن أسباب تذمر اليمنيين من الحكم العثمانى لحل المشكلة ، فأوفد نامق كمال بك إلى اليمن ، وتقدم اليمنيون إليه بشكاوى عديدة من سوء إدارة أحمد فيضى باشا ، فاضطر السلطان العثمانى أن يعزل هذا الوالى وعين مكانه حسين حلمى باشا ١٣١٥ – ١٣١٨هـ – ١٨٩٨ – ١٩٠١م [٩] ، الذى وصف بالاستقامة وحب العلماء ، ومحاربة الرشوة والظلم ، ويذكر عنه أنه أنشا داراً للمعارف ، ودوراً للمعلمين ، ومكتباً لتعليم الصنائع ، كما أنشأ لأول مرة المدارس الإعدادية فى صنعاء ، وسن التعليم الاجبارى بعد أن كان التعليم مقصوراً على علوم الشريعة ، والعلوم العربية فى المساجد ، كما كون حسين حلمى باشا هيئة استشارية من العلماء ورجال السياسة ، وكان لا ينفذ أمراً دون موافقتها ، ولبس العمامة اليمنية ، وأمر الموظفين بلبسها بدلاً من الطربوش الذى عممه أحمد فيضى باشا على جميع موظفى الولاية [١٠] .

وعلى الرغم من الهدوء الذى ساد ربوع اليمن والإصلاحات التى تحققت فى عهد حسين حلمى باشا ، إلا أنه عزل من الولاية ، وعُين بدلاً عنه المشير عبد الله باشا (١٣١٨ - ١٣٢٢هـ / ١٩٠١ - ١٩٠٥م) فعاد الظلم إلى ما كان عليه من قبل ، وكثرت الرشوة وانتشر الفساد ، ووقع الجدب والقحط ، إذ كان هذا الوالى مغرماً باللهو والغناء والموسيقى على الرغم من كبر سنه ، وتمردت فى عهده عام ذ٣ذ٩هـ (١٩٠٢م) قبائل الزرانيق فى منطقة سوق برعان غربى صنعاء ، فعانت الحكومة العثمانية فى اليمن متاعب كبيرة فى سبيل إخضاع هذه القبائل لبسالتها فى قتال العثمانيين ، وعدم استقرارها وتسببت فى عزل المشير عبد الله باشا من ولاية اليمن (١١) ، إضافة إلى ذلك كان عزل المشير عبد الله باشا بسبب عدم تمكنه من حماية حدود اليمن من عدوان الإنجليز الذين توسعوا فى جنوب اليمن ، وسيطروا على الضالع عام ١٩٠٢م ، كما أن هذا الوالى لم يستنكر عدوانهم على المنطقة وتوسعهم ، فأمر السلطان العثمانى بعزله وتعيين توفيق باشا والياً على اليمن (١٢) .

ولما توفى الإمام المنصور فى عام ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م) اجتمعت كلمة العلماء على إقامة ابنه يحى ابن الإمام المنصور بالله محمد ابن يحى حميد الدين ، ومبايعته بالإمامة ، ولقب بعد ذلك بالمتوكل (١٣) ، واتخذ المتوكل " قفلة عذر " عاصمة له ، وقد بدأ الإمام بعد توليه الإمامة فى تنظيم المقاومة ضد العثمانيين (١٤) فجمع القبائل من جميع بلاد اليمن التى أجابته بالطاعة ، وأمرها بحصار المدن التى فيها العثمانيون فحاصروا جميع مراكز اليمن ما عدا الحديدة ، وتعز (١٥) .

وكان الإمام المتوكل قد بعث فى عام ١٩٠٤م ، رسائل عديدة إلى عدن نشر فيها دعايات للتشهير بما يقوم به العثمانيون من فظائع ، وعبر الإمام المتوكل عن غضبه وكراهيته للحكم العثمانى ، وذم العثمانيين ومما قاله : " قد لبسوا ثياب الطغيان وتسربلوا بحلل الغطرسة والعصيان " واتهمهم بالفسق وارتكاب الجرائم (١٦) .

وهكذا شن اليمنيون الحرب على العثمانيين ، وعلى رأسهم الإمام المتوكل الذى انتقل من عاصمته " قفلة عذر " إلى كوكبان ، واضطربت البلاد ، وازداد الضغط على العثمانيين ، كذلك تضافرت القوى اليمنية من قبائل همدان ، وحاشد والأهنوم وغيرهم من القبائل التى كانت قد سئمت الوضع القائم الذى لا توجد معه سلطة وكنية معينة تعنى بالمحافظة على الأمن ، وإدارة البلاد إدارة سليمة ، وتمكنت تلك القبائل من تعقب الحاميات العثمانية وحصرها فى صنعاء (١٧) .

ولما اشتد الحصار على العثمانيين ، انتدب الوالى العثمانى فى صنعاء هيئة من الأتراك واليمنيين ذهبت إلى الإمام المتوكل لبحث موضوع تسليم صنعاء للإمام والشروط التى يتم الاتفاق عليها ، فتم الاتفاق على أن يقوم الإمام بحماية العثمانيين أثناء انسحابهم من صنعاء إلى حراز ، على أن تكون بلاد حراز من المناطق الخاضعة للنفوذ العثمانى ، وتضم إليها ألوية تهامة ، وتعز ، وآب ، وانتدب الإمام يحيى سيف الإسلام أحمد بن قاسم حميد الدين لاستلام صنعاء من العثمانيين نيابة عن الإمام المتوكل [١٨] .

وبعد أن استرقت الأوضاع فى صنعاء دخلها الإمام يحيى مع أتباعه فى الحادى والعشرين من أبريل ١٩٠٥م ، وسمح للجنود العثمانيين الذين وجدهم داخل المدينة بالخروج منها إلى الساحل مع تأمينهم على أرواحهم بعد أن جردهم من أسلحتهم وذخائرهم .

وعلى الرغم أن الإمام يحيى اتجه إلى تنظيم الأوضاع الداخلية فى صنعاء ، وإقامة الأحكام الشرعية ، لكن السلطان العثمانى أرسل حملة عسكرية كبيرة بقيادة أحمد فيضى باشا [١٩] لتدعيم موقف الدولة العثمانية فى اليمن ، وقد تمكن أحمد فيضى باشا من التقدم من الحديدة إلى صنعاء التى انسحب منها الإمام يحيى وتمكن العثمانيون من استعادة صنعاء فى أوائل سبتمبر ١٩٠٥م ، وانسحب الإمام يحيى إلى شهارة [٢٠] .

وكان المشير أحمد فيضى باشا يرى بعد دخوله صنعاء ، وبعد العناد الشديد الذى واجهه ، والأخطار المحدقة به ، أنه من الأفضل أن يعقد صلحاً مع الإمام يحيى ، لينهى الخلاف ويريح الدولة العثمانية من مشكلة استعصى حلها ، فأوفد وفداً إلى صنعاء لزيارة الإمام يحيى ومفاوضته من أجل عقد الصلح ، فوضع الإمام يحيى شروطاً معتدلة تسلمها الوفد [٢١] ، وتضمنت هذه الشروط تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ، وأن يتولى الإمام تعين وعزل القضاء ، وكذلك تكون معاقبة الخائنين والمرتشين منوطة بالإمام ، وأن تكون جباية الأموال بواسطة مشايخ البلاد تحت نظارة مأمورى الدولة العثمانية دون تدخل من الإمام فى شئون الأموال الأميرية ، على أن تحافظ الدولة العثمانية على أمن اليمن الخارجى ، فأبت الدولة العثمانية قبول هذه الشروط فتجدد القتال مرة أخرى [٢٢] .

فقام المشير أحمد فيضى باشا بقوته التى تكونت من عشرة طوابير بالتوغل فى بلاد اليمن ، وشجعه على ذلك عدم وجود مقاومة من أتباع الإمام يحيى ، ولم يفطن أحمد فيضى باشا إلى أن إخلاء الطريق أمام قوته وتوغلها فى اليمن ، كان خدعه حربية من اليمنيين ، فلما

وصل إلى شهارة هاجمته القبائل اليمنية هجوماً عنيفاً ، فهزمت القوات العثمانية ، وقتل عدد كـبير من الجنود وقوادهم ، وفر أحمد فيضى باشا مع من تبقى من جنوده ، وكانت معركة شهارة من أشرس المعارك التى دارت بين اليمنيين والعثمانيين ، وكانت نقطة تحول فى تاريخ الوجود العثمانى فى اليمن ، وسميت اليمن بعد تلك المعركة بمقبرة الأناضول (٢٣) .

ومما سبق يتضح أن استمرار الثورات اليمنية ضد الحكم العثمانى كان سببه طبيعة المـذهب الزيدى ، إضافة إلى سوء حكم بعض الولاة العثمانيين الذين بالغوا فى إرهاق أهالى اليمن ، كما أن الاختلاف المذهبى بين الأئمة الزيدية والسلطة العثمانية أدى إلى تعميم تلك الـثورات ضد الحكومة العثمانية التى أدخلت بعض النظم التى لم يألفها الزيديون فى اليمن ، علـى الرغم من أن تلك الثورات قد لقيت اهتماماً كبيراً من قبل الدولة العثمانية من أجل إخمادها والقضاء عليها ، فأرسلت الدولة العثمانية عدة قواد لإخماد هذه الثورات استطاعوا القضـاء علـى كـثير من هذه الثورات ، لكن انضمام الأهالى إلى الثورة التى قادها الإمام الـزيدى يحـيى بـن الإمام المنصور ، أدت إلى ازدياد خطورة تلك الثورات على الحاميات العثمانية فى اليمن ، كما يرجع اهتمام الدولة العثمانية بالقضاء على تلك الثورات إلى تأمين بـلاد الحجـاز من ناحية الجنوب وإقامة خطوط دفاعية فى تلك المناطق خاصة باب المندب المدخل الجنوبى للبحر الأحمر .

كما يتبين أيضاً أن تلك المشكلات التى واجهت الدولة العثمانية فى اليمن قام بدور كبير فيها احتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢م ، بسبب سيطرتها على قناة السويس ، إذ أصبح مـرور الجـيش والقوات العثمانية فى قناة السويس خاضعاً للعلاقات السياسية بين الدولة العثمانية وبريطانيا ، لذلك كانت السفن العثمانية تتوقف عند قناة السويس مدة كبيرة بحجة الحجـر الصحى ، إذ كان الجنود يصابون ببعض الأمراض من جراء هذا التوقف ، وعندما يسمح لهم بالسفر إلى اليمن يصلون وهم منهوكى العزيمة فيعجزون عن مواجهة الثورات فى اليمن ، الأمر الذى ترتب عليه ضعف نفوذ الدولة العثمانية فى تلك المناطق . .

* * *

هوامش المبحث الثالث :ــ

١] هارولد .ف : مرجع سبق ذكره ص ٧٥ .

٢] محمد يحيى الحدادى : تاريخ اليمن السياسى بيروت ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ص ٣٥٢ ، وأحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ القاهرة ١٩٦٤ ص ٢٦٥ .

٣] د / السيد رجب حراز : الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية ١٨٤٠ – ١٩٠٩م القاهرة ١٩٧٠م ص ٧٦ .

٤] د/ فاروق عثمان أباظة : الحكم العثمانى فى اليمن ١٨٨٢ – ١٩١٨م القاهرة ١٩٧٥م . ص ١٢٩ – ١٣٠ .

٥] عبد الواسع بن يحيى الواسعى : مرجع سبق ذكره ص ١٢٩ – ١٤٠ .

٦] المصدر السابق نفسه ص ١٤٥ .

٧] د / جاد طه : سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن القاهرة ١٩٦٩م ص ٣٩ .

٨] محمد يحيى الحداد : مرجع سبق ذكره ص ٣٥٣ .

٩] د / السيد رجب حراز : الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية مرجع سبق ذكره ص ٨٦ .

١٠] محمد يحيى الحداد : مرجع سبق ذكره ص ٣٥٣ .

١١] حسين بن أحمد العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام القاهرة ١٩٣٩م ص ٨٣ .

١٢] د / جاد طه : سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن مرجع سبق ذكره ص ٣٠٩

١٣] عبد الواسع بن يحيى الواسعى : مرجع سبق ذكره ص١٩٧ .

١٤] د / جاد طه : سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن مرجع سبق ذكره ص٣٣١ .

١٥] عبد الواسع بن يحيى الواسعى : مرجع سبق ذكره ص ٢٨ .

١٦] هارولد . ف : مرجع سبق ذكره ص ١٢٢ .

١٧] أحمد حسين شرف الدين : مرجع سبق ذكره ص ٢٦٧ .

١٨] محمد يحيى الحداد : مرجع سبق ذكره ص ٣٥٧ .

١٩] د / السيد رجب حراز : الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية مرجع سبق ذكره ص ٨٨ .

٢٠] د / جاد طه : سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن مرجع سبق ذكره ص ٣٣٢

٢١] أمين سعيد : مرجع سبق ذكره ص ٢٨ .

٢٢] محمود كامل المحامى : مرجع سبق ذكره ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

٢٣] أحمد حسين شرف الدين : مرجع سبق ذكره ص ٢ ٢٦٨ .

* * *

مصادر ومراجع البحث :-

- احمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ القاهرة ١٣٨٣هـ /١٩٦٤
- أحمد فخرى (دكتور) : اليمن ماضيها وحاضرها القاهرة ١٣٧٦ ه / ١٩٥٧ م٠
- أمين الريحانى : ملوك العرب ، بيروت ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م٠
- أمين سعيد : تاريخ اليمن السياسى منذ استقلاله فى القرن الثالث عشر الهجرى القاهرة ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م٠
- جاد طه (دكتور) : سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، القاهرة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩م٠ ،

  سياسة بريطانيا فى الجنوب العربى القاهرة ١٣٨٩ هـ ١٩٧٠م٠
- جون بيشون : بواعث الحرب العالمية الأولى فى الشرق الأدنى ، ترجمة محمد عزت دروزة بيروت د٠ت٠
- جان جاك بيربى : جزيرة العرب ترجمة / نجدة هاجر ، وسعيد الغز ، بيروت ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م٠
- جورج انطونيوس : يقظة العرب ، تاريخ حركة العرب القومية ، تعريب د / ناصر الدين الأسد ، و د / إحسان عباس بيروت ١٣٨١هـ - ١٩٦٢
- حسن أحمد محمود (دكتور) وآخرون : مصر فى العصور الوسطى والحديثة القاهرة د٠ت ٠
- حسين أحمد العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام القاهرة ١٣٥٧هـ - ١٩٣٩م٠
- حسين فوزى النجار : بريطانيا والجنوب العربى القاهرة د٠ت ٠

  السياسة والاستراتيجية فى الشرق الأوسط ج١ القاهرة ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م٠
- ساطع الحصرى : البلاد العربية والدول العثمانية ، بيروت ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م
- يوم ميسلون ، بيروت د ٠ ت ٠

- السيد رجب حراز (دكتور) : المدخل إلى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثمانى إلى الاحتلال البريطانى ١٥١٧ – ١٨٨٢م القاهرة ١٣٨٩هـ – ١٩٧٠م

  الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية ١٨٤٠ – ١٩٠٩ م القاهرة ١٣٨٩ هـ – ١٩٧٠م.
- شونفليد . هيو . خ : قناة السويس ، ترجمة / أحمد خاكى ، القاهرة ١٣٥١هت _ ١٩٣٢م.
- عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل ج١ ، القاهرة ١٣٥١هـ –١٩٣٢
- عبد العزيز رفاعى (دكتور) : قضية الجلاء عن مصر بين سنتى ١٨٨٢ – ١٩٠٧م. القاهرة ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م.
- عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) وآخر : وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر ، دار المعارف الإسكندرية ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.
- عبد الواسع بن يحيى الواسعى : تاريخ اليمن ، المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن القاهرة ١٣٤٦هـ / ١٩٢٨م.
- فاروق عثمان أباظة (دكتور) : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ١٨٣٩ – ١٩١٨م القاهرة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.

  الحكم العثمانى فى اليمن ١٨٧٢ – ١٩١٨م القاهرة ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
- لجنة الدراسات الثقافية : قناة السويس ماضيها وحاضرها القاهرة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م.
- محمد بديع شريف (دكتور) وآخرون : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة مراجعة الأستاذ / محمد شفيق غربال القاهرة د.ت.
- محمد حسن عوبلى : اغتيال بريطانيا لعدن والجنوب العربى بيروت ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.

- محمـــد عمر حبشي : اليمن الجنوبي ترجمة د / إلياس فرح ، د / خليل أحمد خليل بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.
- محمـــد كمـــال عـــبد الحمـــيد : الاستعمار البريطانى فى جنوب الجزيرة العربية القاهـــــرة د.ت.
- محمـــد مصـــطفى صفوت (دكتور) : إنجلترا وقناة السويس ١٨٥٤ – ١٩٥٦ القاهرة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م.
- محمد يحيى الحداد : تاريخ اليمن السياسى ، بيروت ١٤٠٦هـ /١٨٨٦م
- محمـــود كامـــل المحامى : اليمن شماله وجنوبه (تاريخه وعلاقاته الدولية) بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.
- مصـــطفى الحفناوى (دكتور) : قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ج ١ القاهرة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م.
- هارولـــد . ف – يعقـــوب : عـــدن وجنوب اليمن فى ملوك العرب ، ترجمة / المضواحي ، بيروت ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧ م.

****